

قال أبو الطيب: واعلم أن أول ما اختل من كلام العرب وأحوج إلى التعلم الإعراب؛ لأن اللحن ظهر في كلام الموالي والمتعربين من عهد النبي - صلى الله عليه وسلم، وانتشرت جرثومة اللحن حتى أعدت الخاصة حتى صاروا يعدون من لا يلحن قال الأصمعي: "أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل: الشعبي وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وابن القرية والحجاج أفصحهم". وانتقلت جرثومة اللحن من الحاضرة إلى البادية قال الجاحظ: "قالوا وأول لحن سُمع بالبادية هذه عصاي" وتحت تهديد خطر "ذبوع اللحن حاول العرب أن يحافظوا على لغتهم نقية خالصة من الشوائب، يقول الدكتور تمام حسان: "فلقد نشأت دراسة اللغة العربية الفصحى علاجاً لظاهرة كان يخشى منها على اللغة وعلى القرآن وهي التي سموها "ذبوع اللحن" وعلى الرغم من أن تسمية هذه الظاهرة المذكورة لا تشير إلا إلى الخطأ في ضبط أواخر الكلمات بعد إعطائها العلامات الإعرابية الملائمة أشعر بميل شديد إلى الزعم بأن الأخطاء اللغوية التي شاعت على ألسنة الموالي وأصابت عدواها ألسنة بعض العرب لم تكن مقصورة على هذا النوع من أنواع الأخطاء، كما كان يصدق على الخطأ الصرفي الذي يتمثل في تحريف بنية الصيغة في الإلحاق أو الزيادة على الخطأ النحوي الذي كان يتعدى بمجال العلامة الإعرابية أحياناً إلى مجالات الرتبة والمطابقة وغيرهما، وعلى الخطأ المعجمي الذي يبدو في اختيار كلمة أجنبية دون كلمة عربية لها المعنى نفسه، ويصدق على جميع هذه الأنواع من الخطأ أنها أخطاء في المبنى أولاً وأخيراً ولو أدت في النهاية إلى خطأ في المعنى لم يكن نتيجة خطأ في القصد . ويقول أحمد عبد الغفور عطار: "ومن الأسباب التي دعت إلى تأليف كتب اللغة والمعجمات كثرة الأمم ذات الألسنة غير العربية التي دخلت في الإسلام واتخذت العربية لغتها وخشي العلماء أن يدخل في لغة القرآن ما ليس من كلام العرب". كما وجدت ظاهرة أخرى لها خطرهما في تاريخ اللغة العربية تلك هي مبدأ "تنقية اللغة العربية" الذي حمل راية المحافظة على خلوص اللغة، وقد برهن الأمويون على أنهم حماة المبادئ العربية القديمة. نال على هذا التغيير في الجواب استحسان الخليفة حتى أطلق سراحه ومما هو جدير بالذكر أن مذهب تنقية اللغة والمحافظة على فصاحتها تعدى العرب إلى طبقة الموالي الملححة في التسامي والتعالي والتي كانت في سبيل طموحها إلى محاكاة الطبقة السائدة فيما تفعل، تجاري هذه أيضاً في الناحية اللغوية وتحتضن حركة تنقية اللغة العربية بما في ذلك من إعلاء شأن اللغة البدوية الخالصة، وكلما أخذت سلامة اللغة تصير أمراً من أمور التربية والتعليم، قويت آمال غير العرب في أن يستبدلوا - بالصبر والاجتهاد - عربية فصحى من عربية اللهجات الدارجة في محيطهم وقديماً تملك الحسن البصري المتوفى سنة 110 هـ وهو ابن أحد أسارى الحرب من مدينة ميسان، كأبي عمرو بن العلاء ورؤبة، واستتبع هذا المذهب الذي يرى أن العربية الفصحى هي العربية النقية من الشوائب التي لمخالطها لغة أخرى، أنهم رأوا أن أفصح اللغات هي لغات البدو، وإن فالطريق إلى الحكم على سلامة اللغة وفصاحتها ونقاؤها هو قياسها على لغة هؤلاء البدو، "فهذا سليمان بن عبد الملك الذي كان يحسن الإشادة بقيمة الجمال اللغوي وذلك لأنه تأدب أدباً رفيعاً، الضحاك بن مزاحم وعامر الشعبي مربيّاً أولاد عبد الملك ابن مروان ومحمد بن مسلم الزهري "مربي أبناء هشام بن عبد الملك"، وأشهر هؤلاء أبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد والكسائي.